مارد الغيبوبة ينهض: في أن يكون الماضي انتفاضة الحاضر

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

"لم نكن يوما مؤرخين، كنا دوما أقرب إلى الشعراء، أما مشاعرنا فهي ربما ليست إلاّ تعبيرا عن شعرية ضائعة". هكذا كتب المفكر الفرنسي غاستون باشلار حول شعرية الأمكنة. وهذا تماما ما شعرت به عندما دخلت إلى وسط بيروت ليلا في أول أيام المظاهرات اللبنانية، وكأن لأول مرة بعد انتهاء الحرب اللبنانية.

أخذني حضوري اليومي إلى الوسط التجاري، إلى زيارتي الأولى إليها في بداية التسعينات من القرن الفائت في سيارة والدي مع باقي أفراد العائلة. كانت قد فتحت الساحات ليلا نهارا لكي "يتفرّج" عليها اللبنانيون في زيارات سياحية عنوانها الخراب الذي صنعوه من أجمل مدن العالم وأكثرها حيوية وحميمية على السواء: بيروت.

الكتابات التي اجتاحت جدران بيروت أثناء الانتفاضة الحالية، أتت أصدق من الجدران الجديدة ذاتها بشعريتها الفجة

زيارات شعائرية نظر فيها اللبناني النظرة الأخيرة في عين جرائمه تجاه الآخر قبل أن يسدل المجتمع الدولي "لصالح الكل" ستار الخفاء الأبيض ككفن سميك لاجما الصوت والمشهد، ومُغرقا المجتمع اللبناني المُتشرذم في غيبوبة مُتقنة.

كان الوقت مساء. وكانت مصابيح إنارة بيضاء تضيء هياكل الأبنية المنخورة بالرصاصة التي تشبه صروحا باروكية الطراز تعتليها أرواح شياطين الحرب اللبنانية، كما اعتلت تماثيل "الغارغوي" المخيفة كنيسة نوتردام الفرنسية، خاصة حين وبعد الحريق الذي أجمع الكثيرون على أنه مفتعل.

كما حضرت كتابات باللون الأحمر المُرمّد واللون الأسود لشعارات حزبية كريهة ومليئة بالحقد. بعضها واضح وبعضها الآخر غطته آثار الحرائق.

أما مؤخرا فدخولي إلى الوسط كان أشبه بالدخول إلى كتاب قديم تنبعث منه رائحة القِدم: العفن وسخونة غريبة لا أعرف تصنيف ماهيتها. ربما هو رائحة مرور الزمن مُكدّسا في مسامات الأوراق. وحين أقول "رائحة"، فلا أعني بالمعنى المجازي، بل في المعنى الحقيقي.

وقد تكون هذه الرائحة سببها الرطوبة التي اختلطت بروائح الناس والأوراق الممزقة والمتفحّمة، وربما بما تركت الأمطار من أثر في الأرض والنبات والأشجار الموجودة. كل هذا الجو يحيل بناره ودخانه ومائه وترابه إلى بعض مشاهد أفلام المخرج الروسي أندري تاركوفسكي، مخرج "اللامنطق" والحسية المجبولة بالذاكرة والنسيان.

والغريب في هذه التجربة الحسية هو أنني تذكرت حلما راودني منذ سنين عديدة وتكرّر دون أن أتذكر منه سوى شذرات: أنا ووالدتي في سوق بيروت العتيقة. هي تمسك بيدي وأنا أتفرج بداية على روائع القماش الملون والمعروض على أبواب الدكاكين، ونهاية على معروضات صيغة الذهب والفضة. اسم هذه النواحي من الوسط التجاري، حسب قول الوالدة عندما أطلعتها على الحلم: "سوق الصاغة" و"سوق القماش".

قالت لي أنها كانت تصطحبني إلى هناك كثيرا عندما كنت صغيرة. وفي الحلم أيضا أضيع في الأسواق لأختبئ في مداخل بنايات مهدمة أرتجف فيها خوفا وأنا أناديها بأعلى صوتي. كنت أستيقظ من الحلم عندئذ دائما.

أهمية هذا الحلم الآن، هو أنه جعلني أنظر إلى الواقع من خلاله. أتساءل اليوم كيف يمكن للزمن أن يُسرد ولا أقول يتكثّف في لحظة واحدة، لحظة اقترابي من أحد مداخل المحال المُحطمة حديثا زجاجها وحيث اصطبغت جدرانها بكلمات الثورة النابية منها وغير النابية، وأهمها "فليسقط حكم المصرف"؟

المرئي هنا لم يعد ما أراه مباشرة، بل هو تاريخ طويل امتد منذ الحرب إلى الآن. وكأن الخرائب تستردّ أحقيتها بالحضور مجددا لأن "الإعمار" كان "تجميليا" وليس تصحيحيا، فوجب تصديع مكانته وما يمثّله من كمّ لأرواح الموتى التي لم ولن تستكين لا تحت محل لبيع الشوكولا أو خلف محال لبيع الهواتف المحمولة أو غيرها قبل أن تنتزع حقها في أن ترحل بسلام.

سلام حقيقي لم يعرفه اللبنانيون يوما واحدا قبل اندلاع الثورة السلمية التي لم تخلُ، ويستحيل أن تخلو، من شيء من العنف. عنف تطهيري جارح دفع ثمنه أصحاب الأرزاق في وسط بيروت التي شُيّدت على أساس باطل.

لا غرابة في أن يشبّه الكثيرون من اللبنانيين وخاصة أهلنا الذين عرفوا بيروت قبل الحرب، بـ"ديزني لاند"، ومنهم والدتي التي تقول إنها كانت (قبل الثورة) صفعة حمراء في وجه بيروت الحقيقية، حيث كان يلتقي الفقير مع الغني والدكاكين مع البسطات.

جاءت الكتابات بشعريتها الفجة، والتي اجتاحت الجدران أصدق من الجدران الجديدة ذاتها. وقدّمت للمُشاهد كيف يمكن أن يكون الفن "عنفا" بصيغته الحاضرة مُعيدا خاصية النطق للدمار بشكله الرمزي والفعلي الذي حل قبل إعمار الوسط التجاري. جاءت الأعمال الفنية بشكل أوراق مُلصقة أو رسومات أو كتابات على الجدران لتحطم حواجز الفصل ما بين العادي، والمُمكن. حلّت لتقدّم لنا خرابا مُعاصرا لا نريده، ولكن.. نحتاجه.

اليوم وهنا يصدق المفكر غاستون باشلار مرة جديدة في مقتطفات من كلماته العابرة لمؤلفاته "الصورة الشعرية ليست صدى لماض بعيد. على العكس: عبر أي مشهد مُشرق، يبرُق الماضي السحيق بأنواره.. ليكون شعارا للذاكرة وللهوية الشخصية والجماعية".

خراب مُعاصر لا نريده، ولكن.. نحتاجه

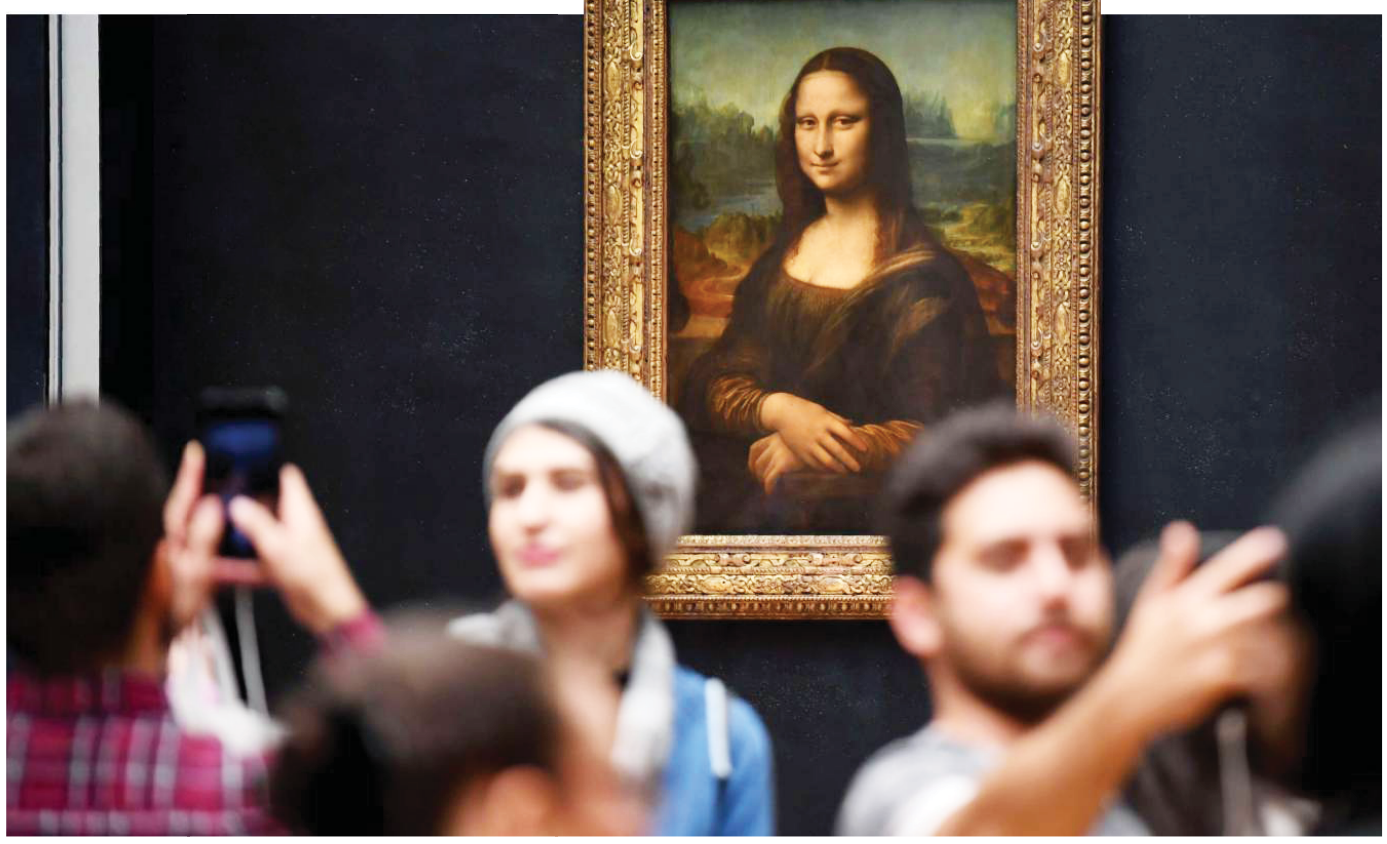

دافينشي ظل محل نزاع بين روما وباريس

باريس مُخاطبة المبدعين: كونوا كما أنتم

مدينة صنع الفنانون المهاجرون مجدها وصنعت مجدهم

مقولة الإبداع لا يعرف وطنا صحيحة. لكن الإبداع يختار الوطن. هناك مدن تخنق المبدعين، وتخشاهم، بينما تختار مدن أخرى أن تزدهر وتنمو بوجودهم. هكذا كانت فلورنسا، التي أهدت للعالم عصر النهضة. ومن قبلها كانت روما وأثينا ومصر القديمة وبلاد الرافدين، ومن بعدها كانت باريس التي استقطبت كبار المبدعين، بدءا بصاحب الموناليزا ليوناردو دافينشي وانتهاء بالفنان الصيني هوانغ يونغ بينغ.. فتحت الأبواب لهم ليصنعوا مجدها وتصنع هي مجدهم.

علي قاسم
كاتب سوري
مقيم في تونس

العلاقة بين الفن والمدن علاقة وثيقة؛ باستثناء الفنون البدائية والشعبية، لم تظهر حركات ومدارس فنية بعيدا عن المراكز التجارية المزدهرة. حدث ذلك في بلاد الرافدين، وفي مصر القديمة، وعلى السواحل الشرقية للبحر المتوسط، وروما، وبلاد الإغريق.

إسطنبول، في الفترة العثمانية، ولدواع تتعلق بموقف الإسلام من التجسيد، اقتصرت الفنون فيها على العمارة والزخرفة وفن الخط العربي، لتستقطب فلورنسا الرسامين والنحاتين، كانت المدينة حينها مركزا تجاريا، حظي الفنانون فيها برعاية عائلات ثرية.

ومع أفول إيطاليا، وصعود فرنسا، حط الفنانون رحالهم في باريس، التي احتكرت رعاية الفن طوال قرنين، القرن الثامن عشر والتاسع عشر. ومع بدايات القرن العشرين، تعدّدت المراكز الفنية، ورغم ذلك حافظت باريس على ألقها، إلى جانب كولون ولندن ونيويورك.

من الأحق

توزّع الفن، وتوزّع الفنانون، ولكن بقي لباريس سحرها، تثير الكثير من الجدل حول هوية الفنان، ومن الأحق بإرثه، البلد التي ولد فيها وشهدت سنوات عمره الأولى، أم البلد التي انتقل إليها وأنجز جل أعماله فيها ناقلا إليها خبراته؟

نجاح عاصمة الأنوار في استقطاب كبار المبدعين، يكمن في انفتاحها على ثقافات العالم، إنه السر الذي جذبهم إليها

السؤال طرح من قبل، ويطرح اليوم بإلحاح. الجدل الذي أثير حول ليوناردو دافينشي، عبقري عصر النهضة، مؤخرا، وتسبب بخلاف بين ايطاليا وفرنسا وصل إلى أعلى مستوى.

عاش ليوناردو سنواته الأخيرة في فرنسا، لذلك يكنّ له الفرنسيون تقديرا خاصا، والإيطاليون من جانبهم يعتزّون بإرثه وهم غير مستعدين لمشاركة هذا الإرث مع سواهم.

وعندما قرّرت فرنسا الاحتفاء بالمئوية الخامسة لميلاد الفنان، واجهت ممانعة كبيرة من الإيطاليين، وخلقت المناسبة أزمة حادة بين البلدين، ألمحت خلالها الحكومة الشعبوية الإيطالية العام الماضي أنها غير مستعدة لإعارة اللوفر أعمالا للفنان محفوظة على الأراضي الإيطالية. ولم يتوان خلالها الائتلاف الحاكم في إيطاليا وعلى رأسه ماتيو سالفيني، عن توجيه انتقادات لاذعة لباريس.

وجددت نائبة وزير الثقافة حينها، لوتشيا بورغونزوني، المقربة من سالفيني التأكيد على أن ليوناردو دافينتشي "إيطاليا حتى لو أن شقيقا لنا في الجانب الآخر من جبال الألب يريد تصويره على أنه فرنسي".

ولم تنته الأزمة بين باريس وروما إلاّ مع تغيّر الحكومة الإيطالية وتسلّم، داريو فرانشيسكيني، الذي يقال عنه إنه مولع بالثقافة الفرنسية، وزارة الثقافة، ليعمل مع نظيره الفرنسي لكي يتمكن اللوفر من عرض كل أعمال ليوناردو دافينتشي في باريس.

فنانون كثر مروا من باريس، خلفوا وراءهم إرثا فنيا عظيما، البعض بدأ حياته الفنية فيها، وآخرون حملوا معهم تجربة حياة، لكل منهم أسبابه في اختيارها، ولكن جميعهم اتفقوا على حبها. لسبب هام أنها فتحت ذراعيها للجميع مرحبة.

الفنان الروسي، فاسيلي كاندينسكي، عشقه للفن حدث صدفة، أثناء زيارة له لمعرض الانطباعيين الباريسيين في موسكو، وسحرته لوحة للفنان الانطباعي كلود مونيه. ليهجر الحقوق وهو في الثلاثين من عمره، ويقرّر احتراف الفن. هاجر متّجها نحو ميونيخ عام 1896 لدراسة الفنون التشكيلية، ولينتهي به المطاف في باريس، فارا من المد النازي، محدثا انقلابا في الأوساط الثقافية والفنية.

فنان روسي آخر هو، مارك شاغال، حط الرحال في باريس، ولم يترك طريقا إلاّ وسلكه، أنتج اللوحات الزيتية، والرسوم التوضيحية، والزجاج المعشق، وتصميمات لديكورات المسارح، ورسوم الخزف والنسيج، مستخدما أجواء شعرية ساحرة لاقت إعجاب العالم، ليقال عنه إنه "الفنان الأفضل تمثيلا للقرن العشرين".

وتفتخر فرنسا اليوم بالرسوم الجدارية الرائعة التي نفذها شاغال في سقف أوبرا باريس.

محجّ الفنانين

فنان آخر جاء باريس من أقصى الغرب الأوروبي، إسباني داندي تحوّل إلى أيقونة باريسية، يسبقه شاربه المعقوف إلى الصالونات الباريسية. إنه سلفادور دالي، السريالي النرجسي الذي لم يتردّد أن يقول عن نفسه إنه أعظم فنان في القرن العشرين.

في يناير1989 توفي دالي تاركا خلفه إرثا ضخما من الأعمال الفنية، إضافة إلى إرث أكبر من الفضائح، أصبحت حسب قوله جزءا من التراث الإنساني. فقط مدينة مثل باريس تستطيع أن تتقبل أن يعيش فيها عبقري نزق ومجنون مثل دالي.

لا يكتمل الحديث عن باريس إلاّ بذكر الغازي الشاقولي لمدينة الأنوار، الإسباني بابلو بيكاسو، الذي جاءها هربا من دكتاتورية الجنرال فرانكو.

ولد بيكاسو في 25 أكتوبر 1881 في مالقة، إسبانيا، وعندما كان طفلا قالت له والدته "إذا أصبحت جنديا ستكون مشهورا، وإذا أصبحت راهبا ستكون البابا"، بدلا من ذلك غادر بيكاسو المدرسة متوجها إلى باريس ليصبح رساما.. وكان بيكاسو أكثر فناني العالم شهرة.

ما كان لمثل تلك العبقرية أن تزدهر إلاّ بمدينة مثل باريس، المدينة التي تفاجئك، كل يوم بجديد، مثلها في ذلك مثل بيكاسو.

قبل أن يغادر بيكاسو إسبانيا، قطع على نفسه عهدا ألا يعود إليها إلاّ بعد رحيل فرانكو عنها، وتشاء الأقدار أن يموت الفنان في 8 أبريل 1973، قبل رحيل فرانكو الذي توفي في 20 نوفمبر 1975. أسماء كبيرة لفنانين غيبهم الموت، تجمع الأصول الأوروبية بينهم. ولكن باريس لم تجذب إليها الأوروبيين فقط، آخر من غيّبه الموت، هو الفنان الصيني، هوانغ يونغ بينغ، المعروف بأعماله التوليفية الضخمة. وكان الفنان واحدا من أبرز الفنانين الطليعيين في الصين، مقيما في فرنسا منذ العام 1989.

لم يأت إلى فرنسا لاجئا على عادة فناني الكتلة الشرقية بل جاءها لإقامة معرض عام 1989، لتندلع بالصدفة أحداث ميدان تيانانمن، فاختار البقاء في فرنسا على العودة إلى الصين.

نجاح باريس في استقطاب كبار المبدعين، يكمن في انفتاحها على ثقافات العالم، إنه السرّ الذي جذبهم إليها.. كونوا كما أنتم، لا نريدكم نسخة عمّا نحن عليه، سنحتفل باختلافكم، اصنعوا مجد مدينتنا، ونحن سنصنع مجدكم.

عبقرية بيكاسو ما كان لها أن تزدهر إلاّ في مدينة مثل باريس، المدينة التي تفاجئك، كل يوم بجديد، مثلها في ذلك مثل الفنان الإسباني

وحدها باريس تتقبل أن يعيش فيها عبقري نزق ومجنون مثل دالي